يوحنا قمير

مَا أمْسِي، وَمَا غَدِي ؟

أو

التّطوّر الإنساني

دار المشرق شرم
بيروت

جميع الحقوق محفوظة ، بيروت ١٩٨٤
منشورات **دار المشرق ش.م.م.**
ص.ب. ٩٤٦ ، بيروت – لبنان

توزيع **المكتبة الشرقية**
ص.ب. ١٩٨٦ ، بيروت – لبنان

ISBN 2-7214-6000-8

تَطَوّر !

«ما أمسي ، وما غدي ؟» بحثٌ في ماضي الانسان وآتيه ، في ما خضع له من تطوّر ، وفي ما يخضع وسيخضع .

وارتأت ادارة «دار المشرق» ، بعد قراءة المخطوط ، ان تصدر سلسلة دراسات في التطوّر ، وان يكون بحثي هذا فاتحةً لها . واستصوبتُ الرأي ، وتقرّر إصدار السلسلة بعنوان : «تَطَوّر !» .

لن تقتصر دراسات السلسلة على الماضي ، بل ستتّسع – قدر ما يتّسع له الموضوع – الى تبيّن ملامح المستقبل في ذلك الماضي .

دراسة الماضي واجب كلّ شعب ، لا ليبعث هذا الماضي أو يعيده ، لأنّ الواقع التاريخي لا يُبعث ولا يُعاد ، بل ليقرأ فيه طاقاته ، وميزاته ، ومناحيه .

لكنّ الاقتصار على دراسة الماضي ، دون الانطلاق منه الى المستقبل ، لظاهرةُ انحطاط : هي الشعوب ، اذا ما أجدبت وعجزت عن الابداع ، عادت تجترّ ماضيها ، تحجب به عريَها وخزيَها ، تملأ حاضرَها وآتيها . وفي المكتبة العربية المعاصرة تطغى مثل هذه الدراسات .

على كلّ دراسةٍ للماضي ان تكتمل باستطلاع المستقبل، برسم طريق التقدّم. وعلى كلّ طامح الى التقدّم ان يعي ماضيه. مَن يكتفِ بدراسة الماضي يتخلّفْ عن ركب الحياة، ومن يتقدّمْ دون الاستنارة بماضيه يسلكْ سبلاً كثيرة المزالق، حافلة بالمتاهات.

الماضي والآتي، التطوُّر والتطوير، هما ما تستهدفه دراسات هذه السلسلة الجديدة، ويسهم فيها كلّ ذي كفاءة.

يوحنا قمير

المحتويات

١١ **نمهّد**

١٣ **ونبدأ**

١٥ **متى كان الإنسان ، وكيف تطوّر؟**

١٩ الانسان والقرد

٢٣ الفصائل الانسانية

٤١ نظرة جامعة

٤٥ **لِمَ كان التطوُّر ، وما المآل؟**

٤٩ أوّلاً : ما سبب التطوُّر؟

٥٣ ثانيًا : هل انتهى تطوُّر الانسان البيولوجي؟

٥٥ ثالثًا : التطوُّر المستمرّ

٦٥ رابعًا : ما نهاية المطاف؟

٦٧ خاتمة

٦٩ **ملحق : هل في الكواكب إنسان؟**

٧٥ **أهمّ المراجع**

نمهّد

نمهّد بثلاث :

١. ردّد سقراط ما كُتب على هيكل أبُّولُّون : «اعرفْ ما أنت». وهذه الكتابة على هيكل إله دعوة الى معرفة الذات ، في ذاتها ، وبالنسبة الى الإله.

٢. لمّا تطمئنَّ كلُّ العقول الى واقع التطوّر ، والى تطوّر الانسان بيولوجيًا ، وبالتالي لمّا نتوغل في استقصاء أبعاد التطوّر.

٣. يسوء الظن في علم ما بعد الطبيعة ، الذي أرسى أرسطو قواعده على علوم الطبيعة ، وهو قد ساء ، لأنّ علوم الطبيعة تطوّرت ، وما تطوّر تطوّرَها علمُ ما بعد الطبيعة.

ونقوم لذلك بثلاث :

١. نستجيب لدعوة سقراط ، وهل أولى بمعرفتنا من ان نعرف ما نحن؟

٢. نسلّم بالتطوّر – الكوني والانسانيّ –، ونحاول تبيّن أبعادٍ ماضية ، وآتية.

٣. ننطلق من مُعطيات علميّة قائمة ، ونعمد الى المنطق والاستنتاج لنثبت ما نثبته في ما بعد الطبيعة ، وفي ما قبلها.

ونبدأ

نبدأ بأعمار[1] ، وأسئلة ، فنقول :

كانت الأرض كرةً تدور حول الشمس منذ نحو ٤٧٠٠ مليون سنة .

كانت ولم يكن عليها حياة أو فكر ، لم يكن نبات أو حيوان أو انسان . ولكنّها كانت حُبلى بكلِّ ما جدّ عليها حتّى يومِنا ، بل بكلِّ ما سوف يجدّ .

وطال حبلُ الأرض ، طال مخاض التطوّر ، ثمّ كان ما كان :

- كانت **الحياة** ، أوّلُ خطوة جبّارة خطاها المعدن الميت ، منذ حوالى ٣٢٠٠ مليون سنة[2] . ظهرت الحياة في البحار أوّلاً ، ثم خرجت الى اليابسة منذ نحو ٤٠٠ مليون سنة .
- وكان **أوّل حيوان** منذ نحو ٧٠٠ مليون سنة[3] .

١. ليست هذه الأعمار أرقامًا رياضيّة دقيقة ، لما يجد العلم في تحديدها من صعوبات ، وتجد لدى العلماء من تفاوت . وقلْ مثل ذلك في كل ما يرد من أعمار في هذه الدراسة .

٢. من العلماء من يعود بعمر الحياة على ارضنا الى ٤ مليارات سنة ، والحياة ستظل ممكنة عليها مدى ٥ مليارات .

٣. عاشت على اليابسة مئات الملايين من الأنواع الحيوانية ، عاشت وانقرضت ، ولم يبقَ منها الى يومنا سوى ١ ٪ !

– وكـــانت **الفقريّـــات** (Vertébrés) ، أرقى الجذوع (Embranchements) الحيوانيّة ، وآخِرها[٤] ، منذ ٥٠٠ مليون سنة .

– وكانت **اللبونات** (Mammifères) ، أرقى فروعِ (Classes) الفقريات ، منذ نحو ٢٠٠ مليون سنة[٥] .

– وكانت **الأُوليات** (Primates) ، أرقى بطونِ (Ordres) اللبونات ، منذ ٧٠ مليون سنة[٦] .

– **والانسان** ، أرقى سلالات (Lignées) الأوليات ، آخِر انجازات التطور وأنجحها :

١. متى كان؟ وكيف تطوّر؟

٢. ولمَ كان التطور ، وما المآل؟

غرض هذه الدراسة الجواب عن هذين السؤالين.

٤. عدد الجذوع الحيوانية الأساسيّة ١٧ جذعًا. وكأن زخم التطور قد وهى ، فلم تظهر بعد الفقريات جذوع.

٥. عدد الفروع الحيوانية نحو ثمانين فرعًا.

٦. طلائع الاوليات ترسيّات (Tarsiens) ، وليموريّات (Lémuriens) ، وهي حيوانات صغيرة – بحجم الفئران – ظهرت وتطورت على مدى ٣٥ مليون سنة (من ٧٠ – ٣٥ مليونًا)، وفي ملامحها بوادر قرديّة. ومن ٣٥ مليون سنة ، فما دون ، ظهرت القرود والانسان : ظهرت قرود العالم الجديد ، ثمّ قرود العالم القديم – وأهمها القرود الكبار (Pongidés) ، الأورنغوتان ، والغوريلاّ ، والشمبنزى – ثمّ ظهر الانسان.

الأُوليات سلالات اربع : الترسيّات ، والليموريات ، والقرود ، والانسان ، وأرقاها الانسان.

الانسان والقرود الكبار سلالتان (Lignées) تفرّعتا من أصل واحد فتشابهتا ، وتطوّرتا تطوّرًا مختلفًا فتباينتا ، على ما سترى.

متى كان الإنسان ،
وكيف تطوَّر ؟

لمّا تنكشف أحشاء الأرض عن كلِ ما تحوي من متحجّرات (Fossiles) ، من عظام انسانية وهياكل ، ومن آثار وآلات ، رغم كلِّ ما قام به العلماء، ويقومون، من حفريّات ودراسات.

وليست كلُّ المتحجّرات المعروفة مكتملة الهياكل ، متعدّدةَ النماذج ، محصورة في مكان أو قارّة ، محدَّدة الأعمار تحديدًا يقينيًّا دقيقًا ، فهنا لدينا جمجمة ، وهناك فكّ ، أو ضرس ، أو نيب ... وعلى المتحجّري (Paléontologue) أن يُقابل ، ويصنّف ، أن يتبيّن الفصائل والاجناس والأنواع ، ويُحدّد المراحل والأنساب.

فلهذا نحن نعرض المعروف ، وعلى قدر ما هو معروف ، نعرض الفصائل الانسانية المتتابعة ، أو ما تُظنّ فصائل انسانية ، علّنا نتبيّن ، عبر هذه اللوحة التاريخيّة الشاحبة ، والحافلة بالظلال ، كيف أطلّ الانسان على هذه الأرض ، وكيف تطوّر ، وما اليه انتهى ، فنرى – أو نحاول أن نرى – ما سوف يكون.

الانسان والقرد

على أنّه قد يعسر تبيّن ما يميّز متحجّرة انسانية من متحجّرة قرديّة، أو ما يميّز انساننا الحاضر من انسان فصيلة سابقة، ما لم تُعرف أوّلاً صلة الانسان بالقرد، والفوارق بينهما، وتُعرف أهمّ ملامح الانسان الحاضر. واليك أهم ما تعرف:

نُشبه القرد، نشبه خصوصًا القرودَ الكبار، الشمبنزى والغوريلاّ والأورنغوتان. وقد أوهمَ الشبه، زمنًا، أنّ الانسان سليل القرد. ولكنّ العلم قد تخطّى هذه النظرة، وأقصى ما يسلّم به علمُ يومنا انّهما سلالتان تفرعتا من اصل واحد[1]، وسارت كلٌّ منهما مسيرتها المتميّزة. ليس القرد جدّنا، ولا أبانا – وما كان في ذلك ايّ غضاضة –، بل هو نسيب فاشل، وقف تطوّره منذ حوالى ١٢ مليون سنة، وظللنا نتطوّر.

والفرق في مسيرة التطوّر أدّى الى فوارق عديدة. تخفت هذه الفوارق أو تلتبس، اذا ما قارنّا القرد بطلائع الانسان، بفصائله الأُولى. ولكنّها تظهر وتتّضح كلّما تقدّم الانسان في تطوّره. ويباين انساننا الحاضر القرودَ الكبار في أمور اهمّها:

١. قد يكون هذا الأصل الواحد أصل الترسيّات والليموريّات أيضًا.

١. **استواء القامة** : وقفنا ، واستوينا في وقفتنا ، ومشينا على رجلين ، فتحرّرت يدانا من المشي ، وانطلقتا تعملان في خدمة العقل ، وكان لهذا العمل أبعد النتائج . أمّا القرد فظلّ يمشي على أربع ، وان وقفتِ الغوريلاّ ، ومشت ، فوقفتها غير مستوية ، ومشيتها لا تعدو خُطُوات .

٢. **طول الساقين** : ساقنا أطول من ذراعنا ، وساق القرد اقصر من ذراعه .

٣. **الاسنان** : ثنايانا (Incisives) منتصبة ،وثنايا القرد منحنية . أنيابنا ملتصقة بثنايانا ، مساوية لها في الطول ، وأنياب القرد منفصلة عن الثنايا ، وأطولُ منها .

٤. **حجم الجمجمة** : معدّله ، لدى الشمبنزى ، ٣٩٤ س^{٣} ، ولدى الأورنغوتان ٤١١ ، ولدى الغوريلاّ ٥٠٦ ، ولدينا ١٣٦٠ . وأقصاه ، لدى الغوريلاّ ، ٧٥٢ ، ولدينا ٢٠٠٠ . حجم جمجمتنا أكبر وتكوينها آخَر .

٥. **تطوير الآلة** : قد يستعمل القرد آلة ، تستعمل الشمبنزى ، مثلاً ، عصا لتصل إلى ما لا تصل يدها ، وتصل عصا بأخرى ، وترشق بالحجارة ، ولكنّها تستعمل الآلة كامتداد جسماني لها ، وتعجز عن تطويرها تطويرنا لها ، وكم طوّرنا وتقدّمنا في صنع الآلات ، فبدّلنا وجه الأرض تبديلاً !

٦. **الكلام** : انساننا وحده يتكلّم كلامًا سويًّا ، يَفهم ما يقول ويُفهم .

٧. **الانطواء الفكري** : انساننا وحده يعلم ، ويعلم أنّه يعلم .

٨. **الفنّ** : عالم الجمال والقبح عالمنا ، والفنّ شأننا . انساننا يرسم ، وينحت ، يغنّي ويعزف ، يرقص ويمثّل ، وان يقمِ القرد بشيء من ذلك فبشيء شاحب يسير لا يُؤبه له .

٩. **الخلُق** : الخير والشرّ من مفاهيمنا ، وانساننا وحده يسنّ الشرائع ، يحاسب ، يثيب ويعاقب .

١٠. **الدين** : طرحنا مشكلة الإله ، آمنّا به أو جحدناه ، وفي نوعنا وحده ظهر رسل وانبياء ، وظهر إله .

الفصائل الانسانية

واليك الآن ، بعد ان رأيتَ ما يمتاز به انساننا ، وما يخالف فيه القرود الكبار[1] ، فصائل السلالة الانسانيّة ، التي ظهرت على أرضنا ، مقتصرين في وصفنا اياها ، على ابرز الملامح ، مراعين الترتيب الزمني لظهورها[2] :

١. أحصى علماء ٣١٢ صفة انسانيّة ، فوجدوا منها : ٩٦ لدى الأورنغوتان ، و ١٩١ لدى الشمبنزى. الشمبنزى اقرب القرود الينا.

٢. لن نتكلّم على المتحجّرات كلام علمائها ، لن نقصّ كيفية العثور عليها وتاريخه ، ولن نتوغّل في احصائها ، بل نكتفي بأهمّها ، وبأهم الأوصاف وألصقها ببحثنا. ولك ان تطالع بعض ما تجد في المراجع ، ان اردت الاحصاء والاستقصاء ، أو ما يقرب منها.

١. الفيّوميّ

عُثر في الفيّوم، في مصر، سنة ١٩٦٦، على متحجّرات يمتدّ تاريخها من ٣٥ – ٢٥ مليون سنة، وفي أصحابها اثنان: المصري (Aegyptopithecus) والبروبليوني (Propliopithecus).

ويتردّد العلماء في شأنهما، فيرون في كلٍ منهما: جدّ القرود الكبار، أو جدّ أحدهم، أو الجدّ المشترك لهم وللانسان، أو الخطوة الأولى الشاحبة نحو السلالة الانسانيّة. سبب ذلك التردّد ضآلة المتحجّرات، وضآلة ملامحها الانسانيّة، فالإحجام عن الأحكام أولى.

٢. الأُوريوني Oreopithecus

لدينا منه بقايا عظميّة، وهيكل عظمي شبه كامل.

يمتدّ عمر هذه العظام من ١٥ – ١٠ ملايين سنة.

طول الأوريوني ١١٠ – ١٢٠ س.، ووزنه اربعون كيلو، وحجم جمجمته ٤٠٠ س^{٣}.

من ملامحه الانسانيّة اتجاه الى الوقوف، ووجه قصير، وأنياب

ملتصقة بالثنايا ، مساوية لها في الطول.

ولكن ملامح القرد غير غائبة ، فالذراع أطول من الساق.

في الأوريوني خليط انساني قردي ، وأغلبُ الظن انه فرع جانبيّ من السلالة الانسانية انقرض دون عقب.

٣. الرامابي Ramapithecus

ليس لدينا منه سوى بعض عظام ، وبعض فكوك.

عاش من ١٤ – ٨ ملايين سنة ، عاشها في افريقية وآسيّة وأورپّة.

من ملامح الانسان فيه: صغر الثنايا ، وصغر الأنياب ، والتصاقها بالثنايا ، وقصر الوجه.

وزن الرامابي حوالى ٢٠ كيلو. وقد يكون وقف ، وإن وقفةَ أحدب.

نسبة الرامابي الى السلالة الانسانية أرجح ، انما يُستبعد تطوّره ، وظهوره في فصيلة انسانية لاحقة.

٤. الأوسترالي (اي الجنوبي) Australopithecus

ليس لدينا متحجّرات انسانيّة ثابتة خلال الحقبة الممتدة من ٨ – ٤ ملايين سنة ، والعلماء جادّون في البحث عن مثل هذه المتحجّرات لملء هذا الفراغ الطويل[١].

١. وُجد بعضُ فكّ يعود تاريخه الى خمسة ملايين سنة ونصف ، وهذا شيء هزيل. قد تكون وُجدت فصائل انسانيّة متحدّرة من الرامابي ، وجدت وانقرضت ما بين ٨ و ٥ ملايين سنة. ولكن ليس لدينا متحجّرات تؤيد هذا الرأي.

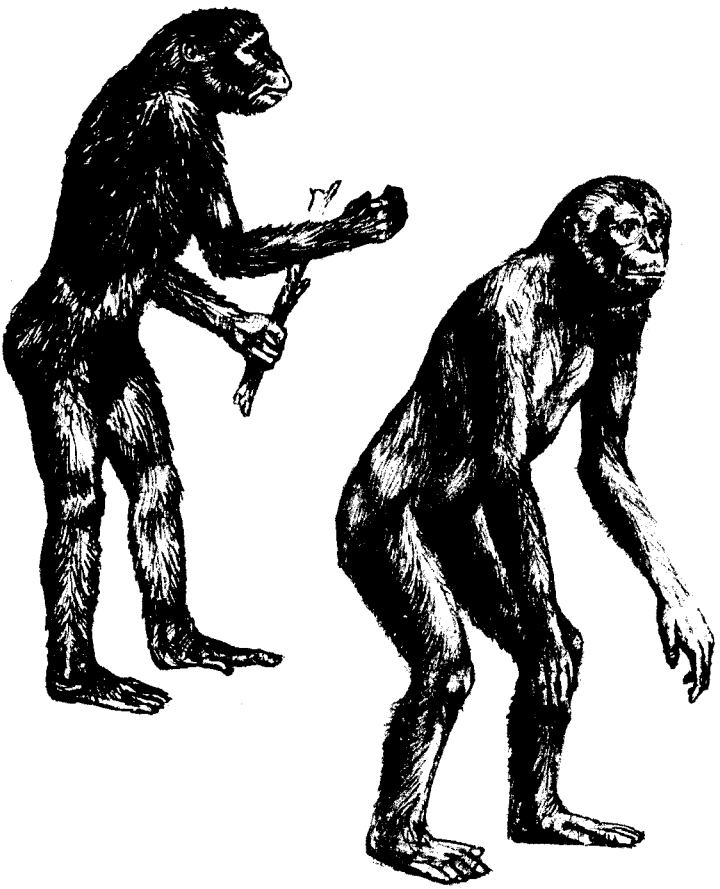

الراماني
(رسمان علميّان)

ظهرت ، بعد ذلك الفراغ ، الفصيلة الأوسترالية – نسبة الى جنوبي افريقية – وتعدّدت متحجّراتها ، وتعدّد المعنيّون بها .

يمكن ترتيب الأوستراليين زمنيًا على الوجه التالي :

١. **الأوسترالي العفاري** (Afarensis) : عُثر في هدار – وهي بحيرة جافّة في صحراء عفار – على متحجّرات عاش اصحابها ما بين ثلاثة ملايين سنة ونصف ومليوني سنة ونصف، ومنهم لوسي (Lucy) التي عاشت منذ ثلاثة ملايين سنة ونصف.

قد يكون العفاري جدّ الاوستراليين اللاحقين، وسلف انساننا.

حجم جمجمته دون ٤٠٠ س^{٣}، ووزنه من ٢٥ – ٥٥ كيلو، وطول لوسي ١٠٧ س.

العفاري نوع واحد في رأي علماء، ونوعان في رأي آخرين.

٢. **الأوسترالي الافريقي** (Africanus) : عاش في الحقبة الواقعة ما بين ثلاثة ملايين سنة ومليون.

طوله ١٢٥ – ١٣٠ س.، ووزنه ١٨ – ٢٥ كيلو، وحجم جمجمته ٥٥٠ س^{٣}.

٣. **الأوسترالي المفتول** (Robustus) عاش منذ حوالى مليوني سنة. طوله ١٤٠ – ١٥٥ س. وزنهُ ٤٠ – ٥٥ كيلو.

الافريقي والمفتول نوعا جنسٍ واحد.

٤. **الأوسترالي الماهر** (Habilis) : عايش الأوستراليَّ المفتول، عاش منذ نحو مليوني سنة، وعاش نحو مليون سنة. هو أكثر تطوّرًا من المفتول، وأطول قامة، وأقصر وجهًا، وأكبر جمجمة (٨٠٠ س^{٣}). كان له بيت وأسرة. ويُسأل: هل نطق بكلمات؟

٥. **الأوسترالي البوازي** (Boisei) : يشبه الأوسترالي المفتول، ولكنه ارسخ وقفة منه. حجم جمجمته: ٤٥٠ س^{٣}. عاش منذ مليون وسبعمائة وخمسين الف سنة.

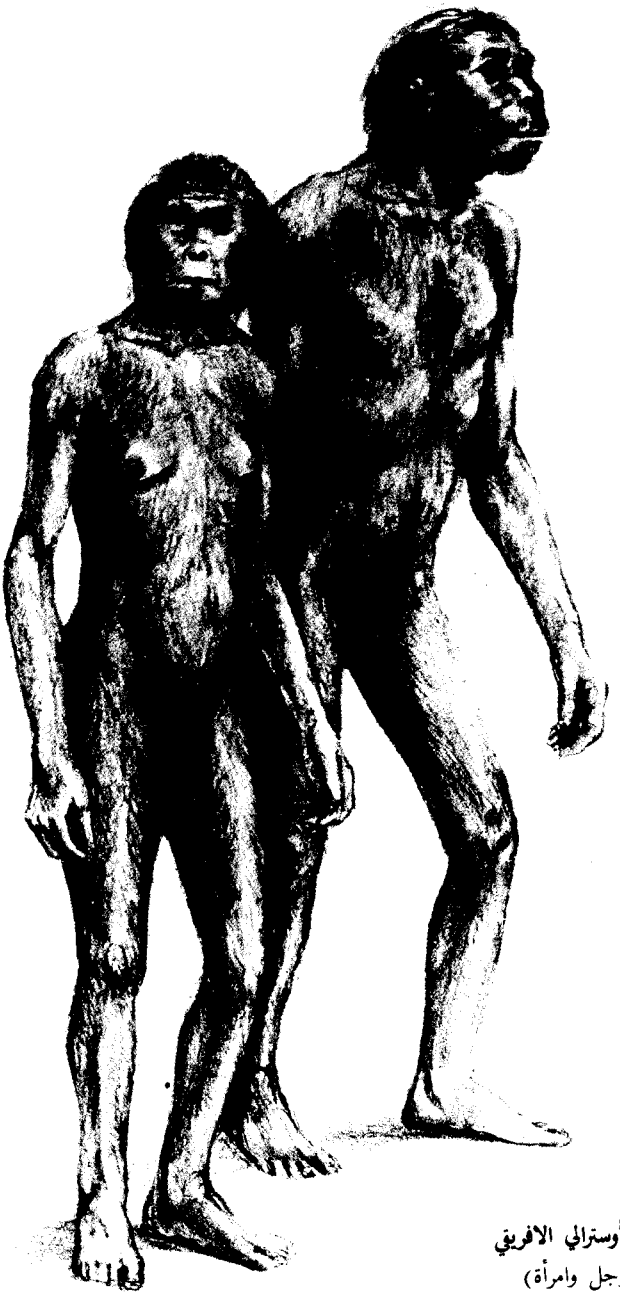

الأوسترالي الافريقي
(رجل وامرأة)

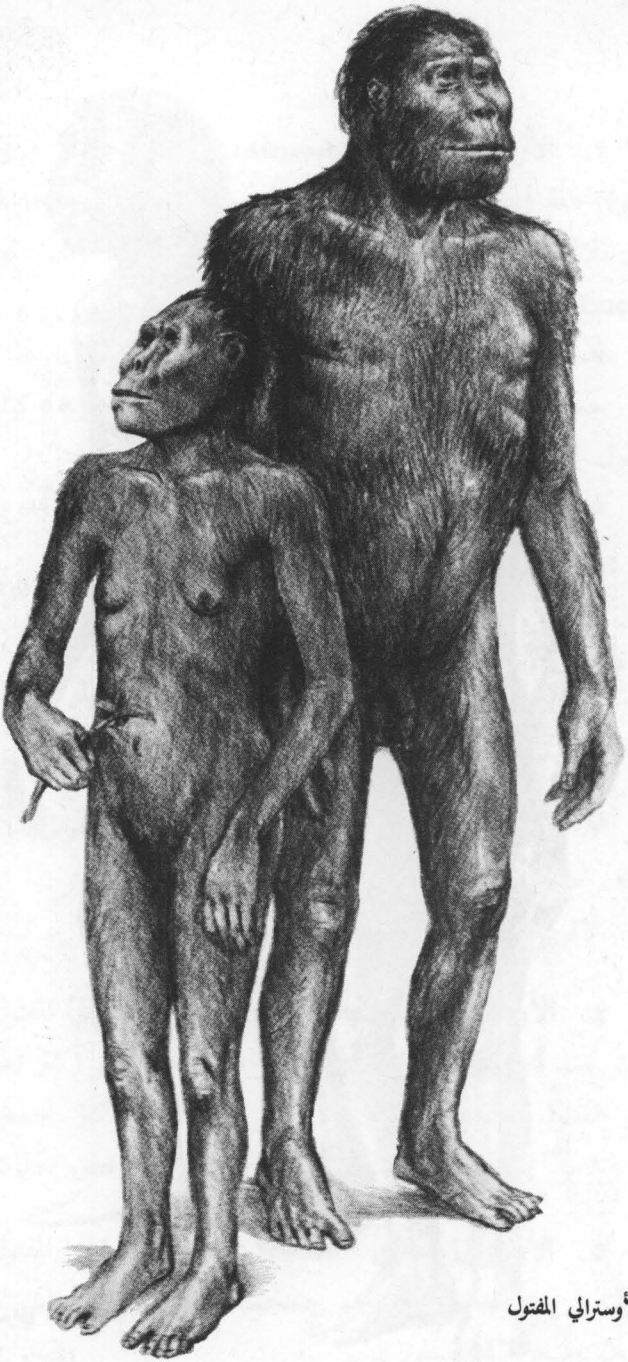

الأوسترالي المفتول

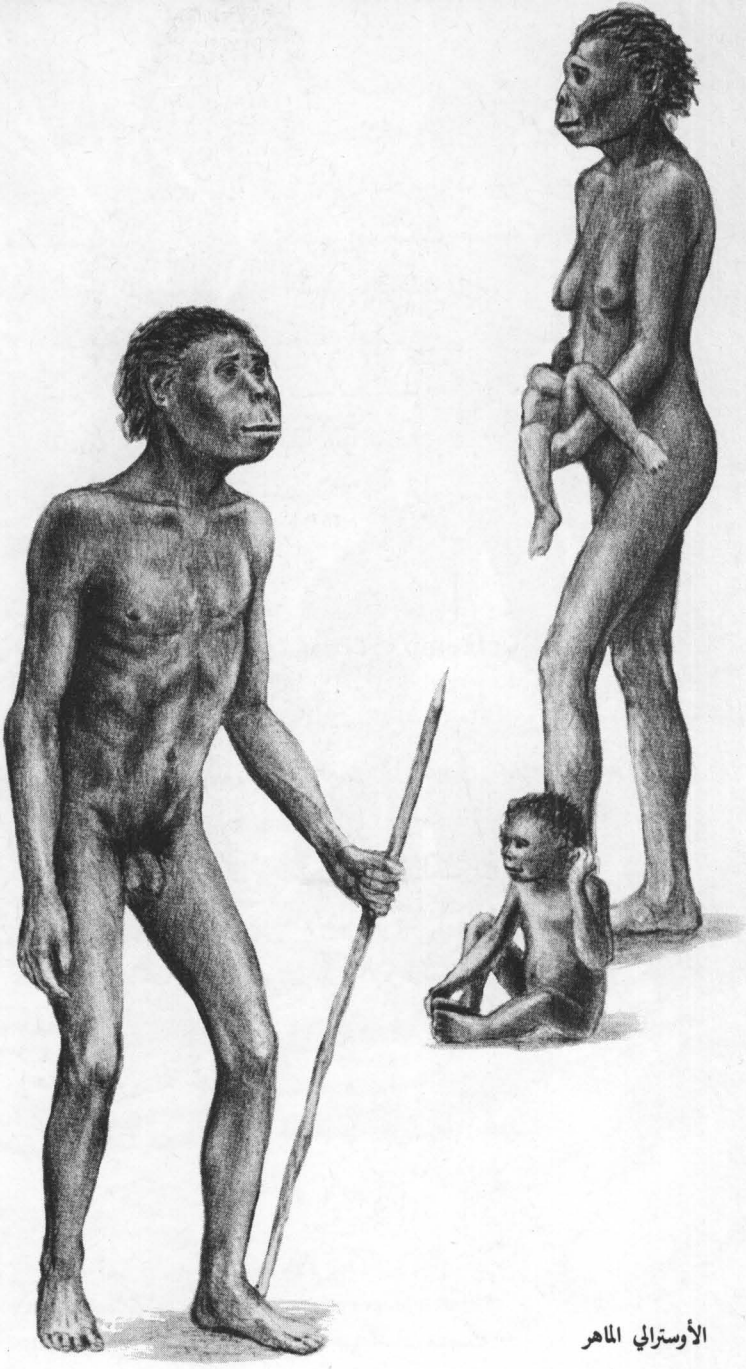

الأوسترالي الماهر

وقف الأوستراليون ، على اختلاف انواعهم ، ومشوا . تساوت لديهم الانياب والثنايا في الطول ، تساوت وتلاصقت تساويها وتلاصقها لدى انساننا ، ولكنّها ضخمت ضخامتها لدى القرود .

صنع الأوسترالي من الحجر والعظم آلات .

الأوستراليون فصيلة انسانية ثابتة ، وفصيلة فاصلة – بيولوجيًّا وزمنيًّا – بين الفصائل الانسانية الشاحبة (الفيومي والأوريوني والراماني) والفصائل اللاحقة الواضحة .

عاش الأوستراليون مدى ملايين السنين ، ولا ندري ما كان سبب انقراضهم .

٥. الانسان المنتصب Homo erectus

تتباين هذه الفصيلة مكانًا ، وتتباعد زمانًا ، وتختلف أوصافًا ، وتتعدّد أسماء[١] ، فيُطلق عليها اسم الاركنتروبي (Archantropus) ، والبيتكنتروبي (Pithecanthropus) ويغلب اسم الإنسان المنتصب .

لن نستعرض كلَّ المتحجّرات الكثيرة ، ولا كلّ الميزات والفوارق ، بل نقتصر على الأهم الأهمّ ، واليك ما عليه اقتصرنا :

١. تباعُد الزمان بتباعد الأوطان ، فالسيننتروبي ، مثلاً ، أحدث من البيتكنتروبي ، والاوربي – على تفاوت أعماره – أحدث من الاثنين .

٢. عاش الانسان المنتصب من نحو مليون سنة ونصف الى

١. أهمّ الأسماء الأسيوية والأفريقية :
Pithecanthropus erectus, Sinanthropus, Atlanthropus.
وتكثر الأماكن الأوربيّة ، التي وجد فيها انسان منتصب .

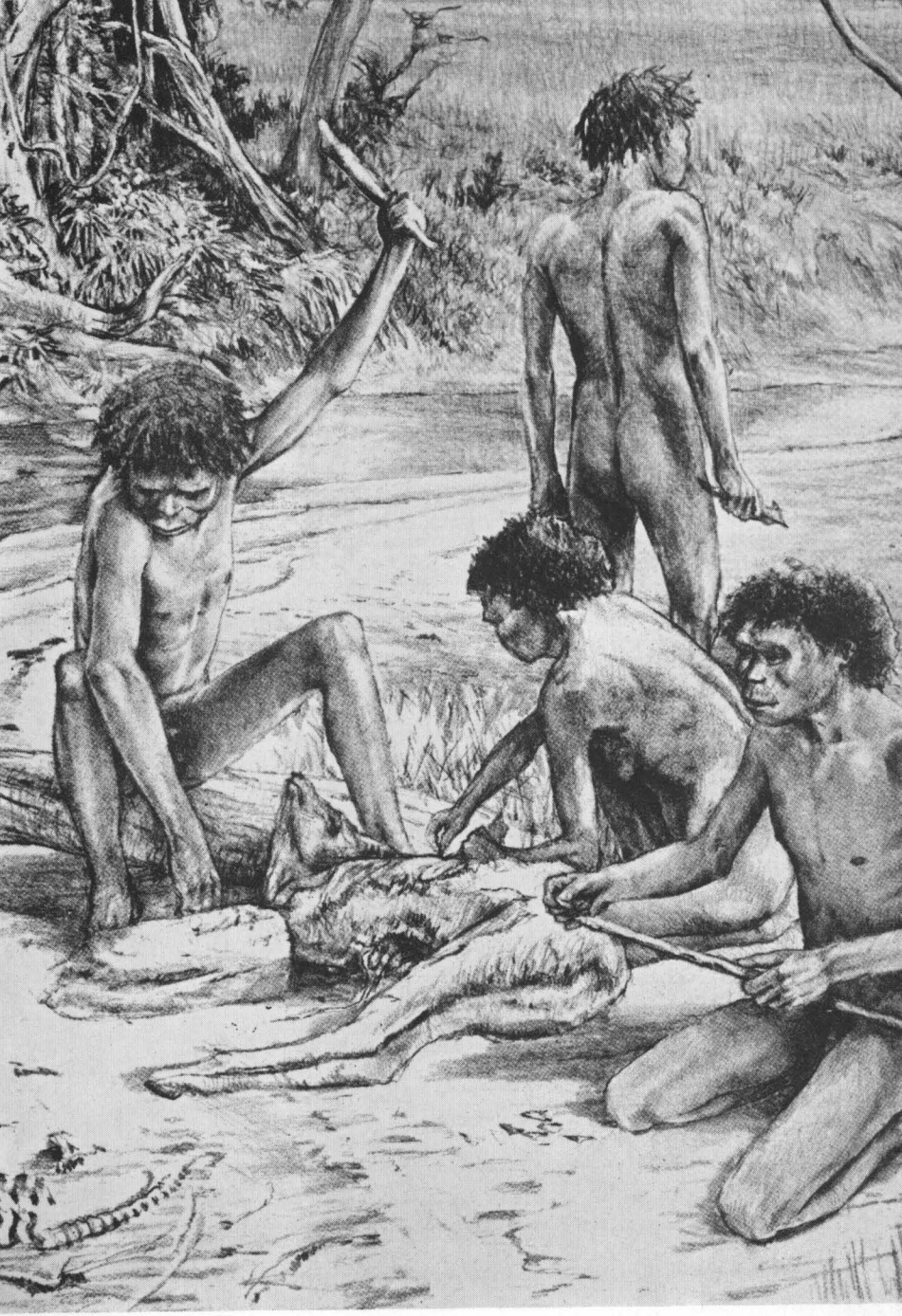

الانسان المنتصب

ثلاثمائة الف سنة ، بل قد يكون عاش الى عهد أقرب . وقد عاش في افريقية فآسيّة وأورپّة .

٣. استوى الانسان المنتصب في وقفته استواءً تامًّا . طوله ١٦٠ – ١٧٠ س . ، ووزنه كأوزاننا .

٤. تتفاوت احجام جماجمه : فالحجم ، لدى البيتكنتروبي ، ٧٧٥ – ٩٠٠ س^{٣} ، ولدى السيننتروبي ٨٥٠ – ١٣٠٠ س^{٣} ، ولدى الأوربي متفاوت جدًا (١١٠٠ ، ١٢٠٠ ، ١٣٢٥ ، ١٣٥٠ ، ١٤٥٠ س^{٣}) . وقد يكون تكلّم كلامًا بدائيًا[٢] .

٥. لدى الانسان المنتصب ملامح قردية ، وأخرى انسانية ، ملامح حديثة هي ملامحنا ، وملامح بدائية دون ملامح الأوسترالي تطوّرًا : فأنياب البيتكنتروبي ، مثلاً ، أطول من ثناياه ، مفصولة عنها ، ضخمة ، قرديّة ، دون أنياب الأوسترالي تطوّرًا . وأنياب السيننتروبي – وبعض الأوربيين – ملتصقة بالثنايا ، مساوية لها في الطول ، شبيهة بأنيابنا . جبين الانسان المنتصب مبروم الى الوراء ، وذقنه بدأ يُطلّ .

٦. صنع السيننتروبي من الحجر والعظم آلات ، واستعمل النار ، وأوى الى شبه بيت ، ولا ادلّة على ان البيتكنتروبي قد صنع ذلك .

٧. قد يكون الانسان المنتصب سليل الأوسترالي الماهر ، ويكون ، عبرَ احدى فئاته المتطوّرة ، جدَّ النيندِرتالي الأوربي ، والانسان العالِم العالِم .

٢. قد يكون الكلام ظهر بدائيًا جدًا ، ثم تطوّر حتى اكتمل لدى انساننا .

٦. الانسان النيندرتالي العالِم
Homo neandertalensis sapiens

أحدث متحجرات الانسان المنتصب المعروفة عمرها ثلاثمائة الف سنة ، وأقدم متحجّرات الانسان النيندرتالي العالم عمرها مئة الف سنة ، والحقبة الواقعة بين هذين التاريخين شحيحة المتحجّرات ، ومتحجّراتها ، كما تظهر في بعض جماجم[١] ، تمثّل مرحلة انتقالية ، حيث تختلط ملامح المنتصب والنيندرتالي .

ظهر الانسان النيندرتالي[٢] العالِم في اوربّة ، منذ مئة الف سنة ، وانقرض بعضه منذ اربعين الف سنة ، وبعضه الباقي منذ ٣٥ الف سنة .

من أبرز صفات النيندرتالي :

١. قامة مستوية ، متينة البنية ، معدّل طولها : ١٦٧ س .
٢. اسنان متساوية في الطول ، متلاصقة ، شبيهة بأسناننا .
٣. جبين ضيّق ، مبروم الى الوراء ، أقرب الى جبين قرد .
٤. جمجمة أكبر من جمجمتنا[٣] : معدّلها ١٤٠٠ س^{٣} ، ومعدّل جمجمتنا ١٣٦٠ س^{٣} .
٥. صنع النيندرتالي له مسكنًا ، واستعمل النار ، وتقدّم في صنع الآلات .

١. يُذكر من هذه الجماجم اربعة اكتشِفت في اوربّة ، في :
Petrolona, Arago, Swanscombe, Steinheim.

٢. نسبة الى Neander ، احد روافد نهر الرين الالماني .

٣. ليس حجم الجمجمة مقياس الذكاء ، فحجم جمجمة أناتول فرانس ، مثلاً ، كان ١٠٠٠ س^{٣} . ويرى علماء أن التفاوت في الذكاء عائد الى تفاوت في أحجام بعض تجاويف الدماغ ، التجاويف الجِدارية (Pariétaux) والصُدغيّة (Temporaux) خاصة .

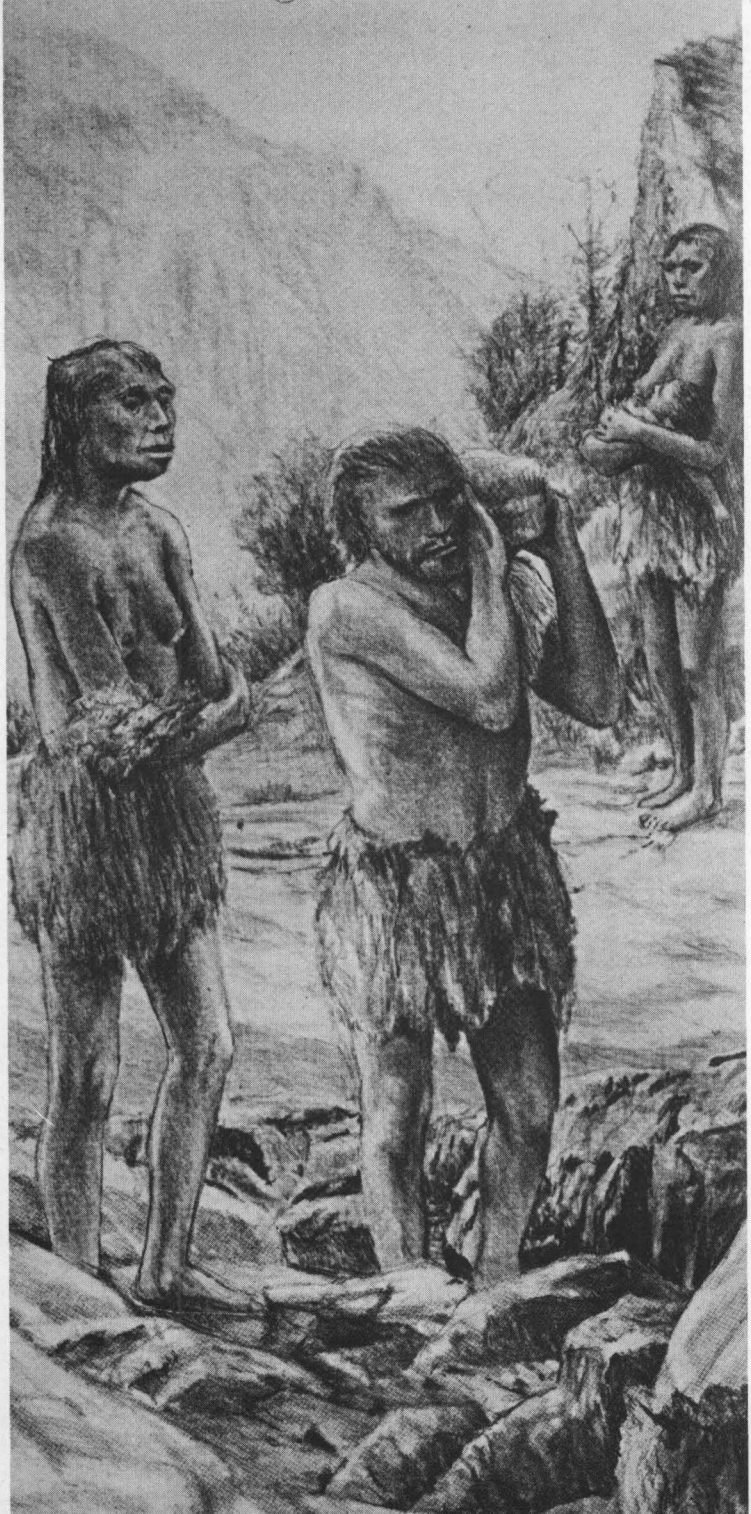

الانسان
النيندرتالي

٦. دفن موتاه – أوّل من دفن – ودفن معهم سلاحًا وطعامًا، وكأنهم بعد موتهم يحيون.

ويرى بعضهم ان الانسان النيندرتالي العالم والانسان العالِم العالِم، انسانُنا، طورٌ بلغه انسانٌ عالِم بدائي، أو انسان منتصب متطوّر، وهما ليسا نوعين، بل عرقا نوع واحد، سبق النيندرتالي وانقرض، وخلف العالِم العالِم وما زال. ولعلّها تعايشا فترة من الزمن، بل لعلّها تزاوجا أيضًا.

٧. الانسان العالِم العالِم Homo sapiens sapiens

ظهر هذا الانسان، في العالم القديم، منذ نحو ٤٠ ألف سنة. ولعلّ الشرق الأوسط مهده. جديد هذا الانسان بالنسبة الى النيندرتالي:

١. جمجمة أصغر حجمًا، ولكنها اكثر التفافًا على الذات، واكثر تناسبًا في الأبعاد، ودماغ أقدر على الكلام، وأقدر في غير مجال.
٢. وجه أقصر، وذقن أبرز، وجبين أعلى، واسنان أدقّ.
٣. قامة أطول (١٦٠ – ١٨٥ س).
٤. استعمال أحذق للآلات، ودفن اتقن للموتى.
٥. ظهور الفن على يده، ولأوّل مرّة، رسمًا ونحتًا ونقشًا[1].

١. ظهر منذ ٣٥ الف سنة، وتوقّف منذ عشرة آلاف. (رسوم في الكتاب: ص ٣٨، ٣٩، ٤٠).

١. انسان – حيوان.
٢. أربعة فتيان يتنازعون فتاة.
٣. حصان مغارة لاسكو (Lascaux).

١

هذا أهمّ جديد الانسان العالم العالم[٢]، كما يظهر في المتحجّرات، ما بين ٤٠ و ١٠ آلاف سنة. أما جديده في زماننا فأشهر من أن نصفه.

٢. ويُقال العالم الحديث، ومنه انسان كرومانيون (Cro-Magnon) الذي عاش منذ ٣٥ الف سنة. وقد انتقل الانسان العالِم العالِم الى اميركا منذ نحو ٤٠ ألف سنة.

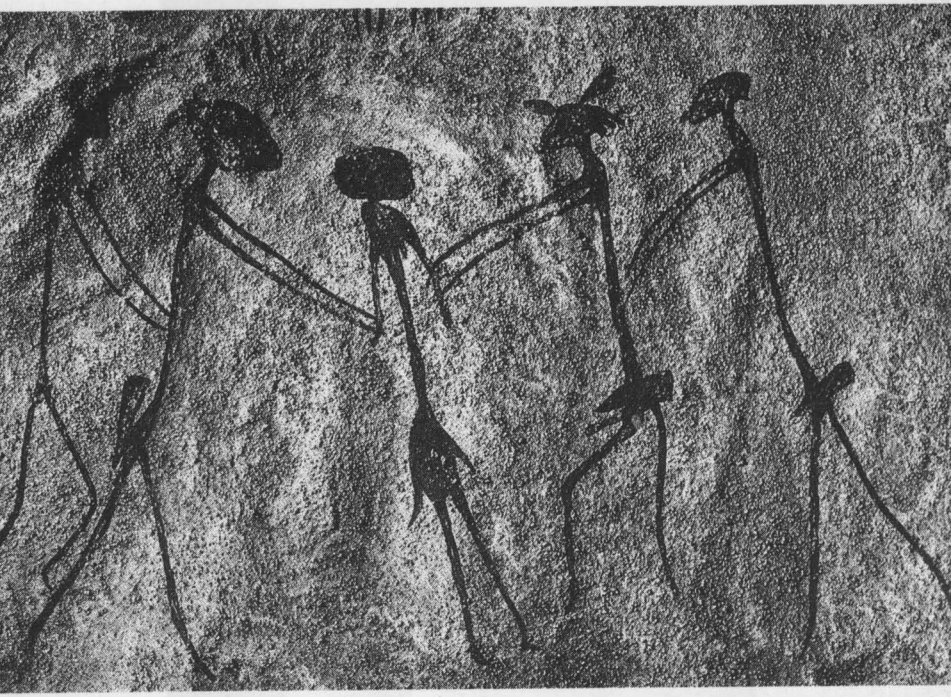

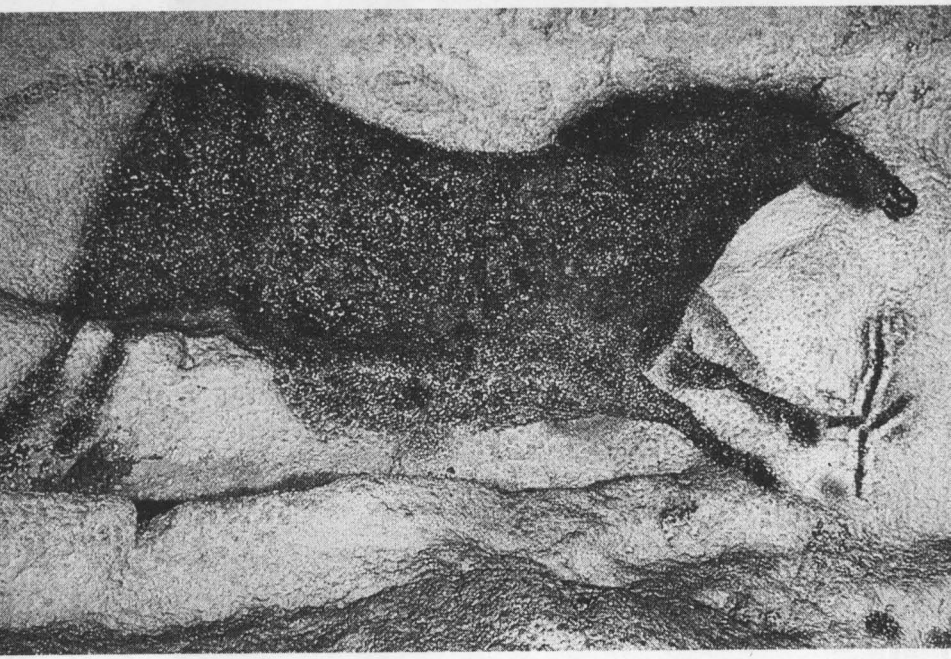

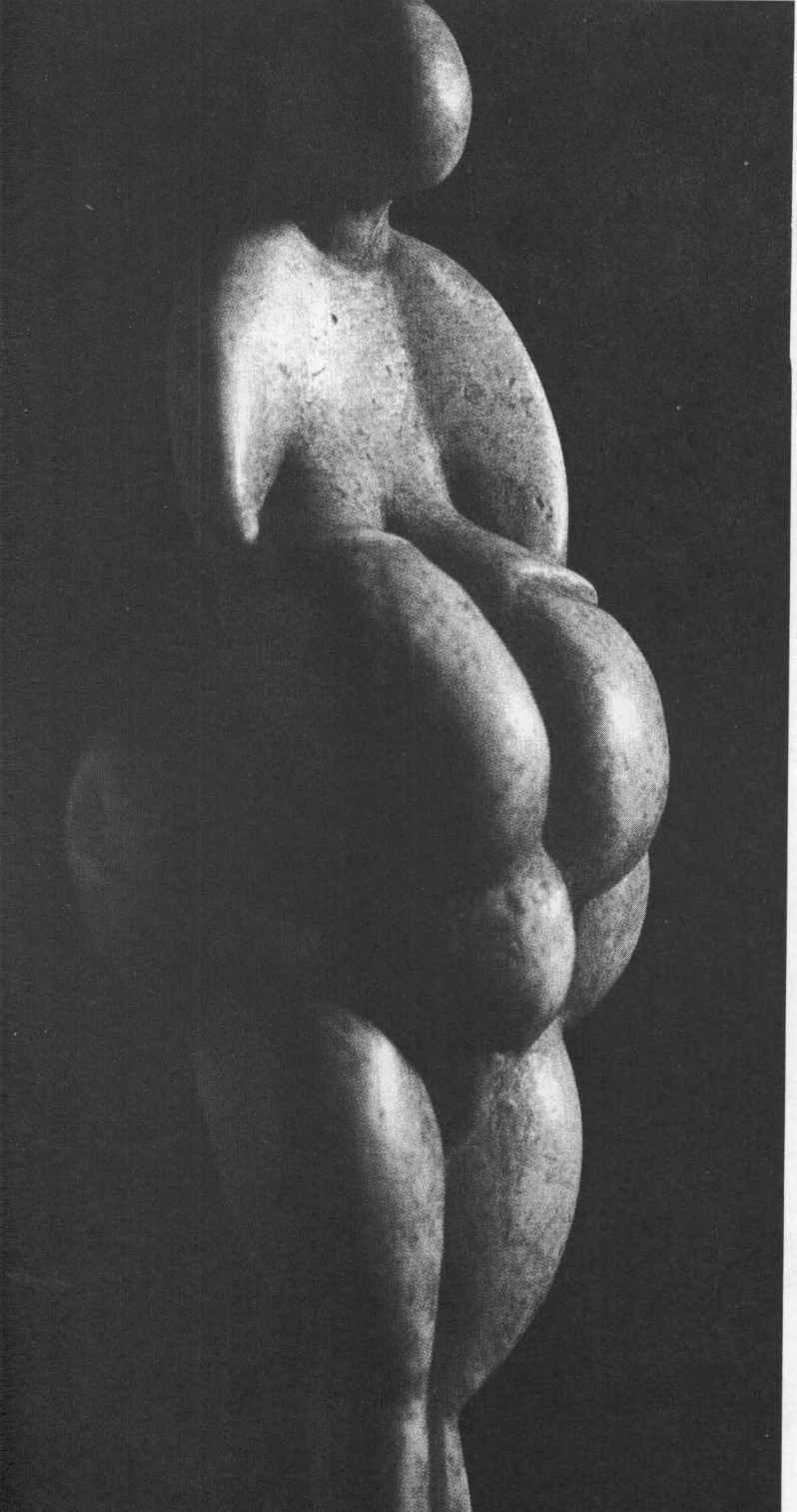

فينوس
من عاج

نظرة جامعة

انتهينا من الكلام على تطوّر الانسان حتّى الآن، ونوجز في كلمات أهمّ ما رأينا:

١. امتدّ هذا التطوّر، عبرَ ٧ فصائل تعدّدت أجناسًا وأنواعًا منذ حوالى ٢٥ مليون سنة. وان نهمل الفيومي والأوريوني تكن السلالة الانسانية قد أطلّت منذ نحو ١٥ مليون سنة.

٢. تفاوتت هذه الفصائل أعمارًا، وتقصر أعمارها على قدر ما تقترب منا.

٣. تزايدت هذه الفصائل، مع الزمن، طولاً، ووزنًا، وقوامًا، وحجم جماجم، واتساع جبين، وقصر وجه، وبروز ذقن، وتفوّق الساق على الذراع في الطول، وقلّما ظهر في كلِ ذلك شاذّ.

٤. ظهرت، منذ الانسان الاوسترالي، مظاهر فكريّة من صنع آلات الى استعمال نار، الى السكنى في بيت، الى دفن الميت، الى ظهور الفنّ والكلام السويّ بظهور الانسان العالِم العالِم.

٥. تزايد مع الزمن تعقّد الجهاز العصبي، وتزايدت قدرة

الفكر ، وبلغ فينا هذان أقصى ما بلغاه حتّى يومنا[1] .

٦. ما تعاقبت الفصائل الانسانية ، في خطّ مستقيم[2] ، تعاقبَ ابناء عن آباء ، ولا هي واضحة صلاتها . وأرجح ما يرى العلماء تحدّر العالِم العالِم والنيندرتالي العالِم من الانسان المنتصب ، وتحدّر المنتصب من الأوسترالي الماهر .

٧. على ان تطوّر الفصائل نفسه استمرّ ، أو كاد ، في منحاه ، في اتجاهه نحو مزيد من «الانسانيّة» ، فتاريخ ظهور الفصيلة يحدّد اجمالاً درجة تطوّرها ، وبالعكس ، وكأنّ كلَّ فصيلة تظهر في موعدها الموقوت .

٨. ويبدو مما تقدّم ان السلالة الانسانية ما تطوّرت كيفما اتفق ، بل اتجهت نحو غاية معيّنة ، وهدف محتوم ، وان تعثّرت الطريق هنا ، تباينت او تلوّت هناك .

وإليك ، في بيانٍ جامع ، خلاصة ما قلنا :

١. اصبح الانسان مع الزمن : أطول ، وأثقل ، وأقوم ، وأجمل ، وأعقل .
٢. ولا كان التطوّر تدريجيًا ، بل قفزاتٍ متفاوتة التباعد .

الإنسان	الفيّومي	الأوريوني	الراماني	الأوسترالي	المنتصب	النيندرتالي	العالِم العالِم
متى عاش؟	منذ ٢٥ مليون سنة	من ١٥ – ١٠ ملايين سنة	من ١٤ – ٨ ملايين سنة	من نحو ٤ – ١ مليون سنة	من نحو مليون ونصف الى ثلاثمائة الف سنة	من مئة الف الى ٣٥ الف سنة	من ٤٠ – ١٠ آلاف سنة
أقصى طول	؟	١٢٠ س.	؟	١٦٠ س.	١٧٠ س.	١٧٥ س.	١٨٥ س.
أقصى وزن	؟	٤٠ كيلو	٢٠ كيلو	٥٥ كيلو	وزننا	يناهز وزننا	وزننا
هل وقف؟	؟	اتجه الى الوقوف	قد يكون وقف	وقف	وقف	وقف	وقف
أقصى حجم جمجمة	جمجمة الى اتساع	٤٠٠ س٣		٨٠٠ س٣	١٤٥٠ س٣	١٨٠٠ س٣	٢٠٠٠ س٣
الجبين					مبروم الى الوراء (قرديّ)	ضيّق مبروم الى الوراء	واسع عال
الوجه	مستطيل (قرديّ)	قصير (انسانيّ)	قصير				قصير
الاسنان	قرديّة	انسانيّة	انسانيّة	خليط	خليط	انسانيّة	أسناننا
الذراع		أطول من الساق					اقصر من الساق
الذقن					بدأ يبرز		بارز
صنع آلات				+	+	+	+
سكن بيتًا				+	+	+	+
استعمل النار					+	+	+
دفن موتاه						+	+
خبَرَ الفنّ							+
تكلّم سويًّا							+

لِمَ كان التطوُّر ،
وما المآل ؟

كان القول بتطوّر الحياة والأحياء نظرية ، فأصبح واقعًا علميًا . وقد كان لعلم المتحجّرات (Paléontologie) دور حاسم ، اذ أرانا في تاريخ المتحجّرات تاريخ الأحياء ، وتاريخَنا ، أو معالمَ هذا التاريخ ، وانطوى التطوّر القديم القائم على انّ العالم قد وُجد ، مذ وُجد ، بكلّ ما عليه من أحياء ، ومن انواع الأحياء ، وانّه قد وُجد منذ بضعة آلاف سنة[1] .

كانت الأرض ، ولم يكن عليها حيّ . ومرّ عليها نحو ١٥٠٠ مليون سنة ، وهي كذلك . ثم كان حيّ – أو أحياء – ، وكان تطوّر : تعدّد الحيّ ، وتنوّع ، وتفرّع ، وتعقّد ، وتصاعد... وبلغ درجة الانسان .

فالانسان اذًا سليلُ المعدنِ الميت ، سليل ما سبقه من احياء ، سليل الفقريات ، واللبونات ، وآخِر الأُوليات . جدّنا حيوان ، وأبونا حيوان ، ونحن أحد الأنواع الحيوانية ، وان نكن ارقى نوع .

وتجدّ اسئلة :

١. منذ ٤٠٠٤ سنين قبل المسيح ، في حساب بعضهم .

اوّلاً – ما سبب التطوّر؟

تطوّرت المادة، وتطوّر الأحياء، ونتطوّر. فما الذي أيقظ المادة، بعد سُبات طويل، أو دفعها بعد مخاض عسير، فسار بها مسيرتها الصاعدة، ويسير بنا مسيرةَ المادة؟

يرى ملحدون أنّ هذا الكون ازليّ، غيرُ مخلوق، وان ما جدّ فيه ويجدّ، من نظام وحياة وفكر، فاتفاقًا جدّ.

ونردّ على الملحد فنقول:

١. الاتفاق مردود:

لم يحدث ايّ شيء عن طريق الاتفاق. ذاك ان المادة تخضع لقوانين، هي تعبير عن صلةٍ ضرورية بين مسبَّبٍ وسببه، أو أسبابه. لا يحدث شيء دون سببٍ محدِث، ومتى وُجد المحدِث، بكل شروطه، وُجد الحادث ضرورة. هو قانون السببيّة قانونُ كلِّ حادث، حياةً كان أو انسانًا. وما يُقال انه حدث اتفاقًا فله أسباب احدثته، ولكننا جهلنا الأسباب، أو عجزنا عن توقّعها، فقلنا بحدوثها اتفاقًا. نحن نقول، مثلاً، ان ربح ورقة «يانصيب» قد حصل اتفاقًا. ولكن لو علمنا كلّ الأسباب، التي أدّت بالدواليب الى تسجيل رقم معيّن، لرأينا ان التسجيل كان نتيجة تلك

الأسباب ، نتيجةً ضرورية ، وانتفى القول بالاتفاق .

نسبة حدوث الأشياء الى الاتفاق تعبير عن جهل أو عجز .

٢. والخالق موجود :

ان كان هذا الكون غير مخلوق ، على ما يقول الملحد ، فهو واجب الوجود ، موجودٌ بذاته ، دون علّة أوجدته .

والحال انّ هذا الكون ناقص ، محدود الصفات ، وتكفيه صفةٌ إضافيّة ، أو بعضُ صفة ، ليصبح أتمّ مما هو .

وان كان هذا الكون الناقص واجبَ الوجود ، فكونٌ أتمّ منه أحقّ بوجوب الوجود ، وبالوجود ، فلمَ لمْ يوجد دونَه ؟

بل انّ كائنًا تامًا ، متصفًا بكلِ الصفات ، وأتمّها ، لأحقُّ من الناقصِ ، والأتمّ ، بوجوب الوجود ، وبالوجود . فهذا التامّ وحده واجب الوجود ، وموجود .

وواجب الوجود التامّ هذا هو علّة عالمنا الناقص ، بكلِّ ما فيه ، هو الخالق ، هو الله .

ولو لم يكن للكون خالق ، لمَ كان ذا تمامٍ معيّن محدود ، لا انقص ولا أتمّ ؟ كيف نتصوّر ، مثلاً ، غرفةً ذاتَ أبعادٍ معيّنة – ذاتَ طولٍ معيّن ، وعرض معيّن ، وعلوّ معيّن – دون بانٍ هكذا حدّد أبعادَها ، وبناها ؟ وكذا كيف نتصوّر كونًا ذا كمال معيّن محدود ، لا أكثر ولا أقلّ ، دون خالقٍ هكذا تصوّره وسوّاه ؟

فالكون اذًا مخلوق ، وله خالق .

٣. وفي المخلوق كلّ الوعود :

واذا كان الملحد على خطأ ، اذا كانت المادة مخلوقة ، والتطوّر ما حدث اتفاقًا ، فما الذي أحدثه ؟

تخضع المادة ، اذ تعمل ، ويخضع كلُّ مخلوق ، لقوانين.

والقوانين ليست سببَ ما تعمل الأجسام ، بل تعبير عقليّ عمّا تعمل. فحين نقول ؛ مثلاً ، ان الماء يتبخّر بحرارة مائة درجة ، فليس هذا القانون هو الذي يجعل الحرارة تبخّر الماء ، بل طبيعة الحرارة وطبيعة الماء ، وما القانون سوى اكتشاف ما تعمل الطبيعة ، وتعبير علميّ عمّا تعمل.

فطبيعة المادّة ، أو الموادّ ، التي تتركّب منها أرضُنا وكونُنا ، هي التي انطلقت بها وطوّرتها.

سبب التطوّر المباشر طبيعةُ الأشياء نفسُها ، والسبب البعيد هو خالق تلك الأشياء بتلك الطبائع.

هو الله الذي برى العناصر الطبيعيّة ، ووضع فيها اتجاهًا معيّنًا ، فجارتِ العناصرُ طبائعها ، واتجهت اتجاهاتِها ، فكان تطوّرها ، وما آلت اليه ، وتؤول.

ثانيًا– هل انتهى تطوّر الانسان البيولوجي؟

رأينا تطوّر السلالة الانسانية، فهل انتهى هذا التطوّر بنا، وتوقّفتِ المسيرة، وتنقرض السلالة اذا ما انقرض نوعنا؟

لقد توقّف تطور القرود الكبار – أقربِ الأُوليات منّا – منذ حوالى ١٢ مليون سنة[1]، فهل توقّف تطوّرنا ايضًا، ويعيش نوعنا حقبة استقرار بيولوجيّ نهائي؟

ان ما يراه العلم، بالنسبة الى هذا السؤال، متعدّد، فهو:

١. لا يتوقّع ظهور فصيلة انسانية جديدة، كما لا يتوقّع ظهور فصائل حيّة جديدة، وكأنّ زخم الحياة قد وهى، وأصبح عاجزًا عن مثل هذه الخطى.

٢. لا يُحيل ظهور انواع انسانية جديدة، لا يحيل ان تتطوّر اعراقنا، أو بعضها، فتصبح هذه الأنواع. ان انواعًا حيوانيّة، أقدمَ منا، ما زالت تتطوّر، وتطل في انواع جديدة، فلماذا لا تتطوّر أنواعنا تطوّرَها؟

٣. يُرجِّح تجاوزَ نوعِنا الراهن ما وصل اليه من تطوّر، يرجِّح، في ما يرجّح، تطوّرَ دماغنا، وظهورَ انسان اذكى منا.

١. بدأ عدد هذه القرود يتضاءل، وانقراضها قد لا يكون بعيدًا.

ويؤيّد هذا التوقّع واقعان هما :

أولاً تفاوتُ عقولنا : ان ظهور نخبة متفوّقة في نوعنا ، من أمثال ارسطو وانشتين ، نتيجةُ تطوّر خاصّ في الدماغ ، فلمَ لا يحدث هذا التطوّر الدماغي في سواد افراد النوع ، ويصبح سوادُ النوع امثالَ ارسطو وانشتين ، على ان تتفوّق نخبةٌ فيه تفوّق ارسطو وانشتين؟

ثانيًا استمرار اسباب تطوّرنا ، أو ما يراه العلماء أسبابًا ، لأنّه اذا ما استمرّت الأسباب استمرّت النتائج :

– فان يكن تباين البيئة ، كما يقول لامارك (١٧٤٤ – ١٨٢٩) هو سبب تكيّفنا وتطوّرنا ، فهذا التباين مستمرّ .

– وان يكنِ الصراع من أجل الغذاء والمأوى والأنثى والمدى يقضي على الضعفاء ، ويبقي على الأقوياء ، ويطوّر الى أفضل ، كما يقول داروين (١٨٠٩ – ١٨٨٢) ، فهذا الصراع مستمرّ ، وأعنف ، وذو حجم عالمي .

– وان يكن تغيّر (Mutation) في الوراثيّات (Gènes) ، أو ظهور وراثيات جديدة ، سببَ التطور ، على ما يرى علماء ، فهذان التغيّر والظهور مستمرّان .

ينتج ممّا تقدّم نتيجتان :

الأولى احتمال ظهور انواع انسانيّة جديدة ، مهما ضؤل هذا الاحتمال . وقد يتحكّم العلم في « التركيبة الوراثيّة » فيركّب أنواعًا بشريّة جديدة .

والثانية ترجيح استمرار تطورٍ في نوعنا الراهن : يستمرّ بنوع خاص تطوّر دماغنا ، وان تمهّل ، وسار الهوينا ، وكأنّ الحياة نحّات ينقر بازميله آخر النقرات ، ويصقل آخر النتوءات ، ليستقيم للعقل أقصى ما يستطيع من قدرات .

ثالثًا : التطوّر المستمرّ

على انّا ، مهما يكن من استمرار تطوّرنا البيولوجي ، فانّ تطوّرًا آخر مستمرّ ، هو تقدّمنا العلمي والعملي[1] .

التقدم العلمي والعملي

سعى الانسان ليعلم ما في هذا الكون من موجودات ، ويعلم نفسه ، فتقدّم في سعيه أشواطًا ، تكوّنت علوم وتعدّدت ، كان كل ما نعرف من علوم الطبيعة والانسان .

واهتدى الانسان بما علم ، فسخّر الطبيعة لتأمين بقائه ورخائه ، ونظّم شؤونه ، في شتّى المجالات ، على ما اعتقده أجدى لهنائه .

دور الكلمة في هذا التقدّم

قبل الكلام كان الانسان أخرس ، وكالأصمّ ، لا ينطق بكلمة ، ولا يسمع كلمة ، ولا يتقدّم عن طريق الكلام .

وتكلّم انساننا العالِم العالِم ، أوّل من تكلّم كلامًا سويّا ، فكانت الكلمة ، وكان عن الكلمة ما كان :

١. كل علم عمل ، وكل عمل مهتدٍ بعلم ، ففصل العمل عن العلم فصل نظري بحت .

– كانت الكلمة فكانت لغات ، وأصبح نقلُ المعلوم ممكنًا ، فيُعلم في سنين – نظريًا وعمليًا – ما كان يُعلم في عمر ، بل في أعمار أو قرون ، وينتهي تفوّق الشيوخ ، وسلطان خبرتهم ومعرفتهم .

– وكانت الكلمة ، فكانت كتابة وكتاب ومكتبات ، اصبح الكتاب خزانة علم ، والمكتبة معلّمًا يعرف كلَّ معلوم . وترى كم اسهم الفينيقيّ اذ اخترع الأبجدية .

– وكانت الكلمة فكان تعليم ، كان معلّمون ومتعلّمون ، طرائق وبرامج ، وكلّ أجهزة التعليم .

– وكانت الكلمة ، فكانت العلوم ، كان تدوين ، وتواصل ، وتراكم ، وتقدّم ، كانت علوم الطبيعة وعلوم الانسان ، كلُّ المعارف النظريّة والتطبيقيّة .

استمرار التقدم

ما تمّ حتّى اليوم ، في حقلي العلم والعمل ، شاسع باهر ، ولكنه محدود .

على ان الانسان طموح ، دؤوب في السعي للمزيد :

فهو ، في مجال العلم ، مثابر على هتك الحجب ، لا يهدأ له بال ، ولا يهي منه عزم ، أو يعرفَ كلّ حقّ ، ويبلغَ آخر حدود المجهول .

وهو ، في مجال العمل ، جادّ لا يني ، يستنفد الطبيعة طاقاتِها ، ويستلهمُ ذاتَه كنوزَها ، ويستقصي الجمالَ ألوانه .

ويحضرني المشهد الرائع :

أرى كلَّ مصغٍ الى معلِّم أو عالِم ،

وكلّ قارئ في كتاب ،

وكلّ مفكّر في معضلة ،

وكلّ كاتب يذوب على يراع ،
وكلّ شاعر يستلهم الأعماق والآفاق ،
وكلّ ساهر في مختبر ،
وكلّ عامل في مصنع ،
وكلّ عازفٍ على ناي أو كمان ،
وكلّ نحّاتٍ ورسّام ،
وكلّ خاشع لدى جمال ، أو سائح ليلقاه ...

أرى كلّ من شغله زادُ الحقّ عن زاده ، وزادُ الجسد عن رقاده ، وصقلُ جمال عن دبيبِ دائه ...

أرى كلّ تلك الجهود تتداعى ، وتتلاقَى ، وتتعالى : سمفونيّةً تصمت لديها كلّ السمفونيّات ، وصلاةً يُستجاب لها كما لا يُستجاب لصلوات ، وهي بعدُ كلّ يوم اعذبُ وقعًا ، وأصفى مناجاة .

الاستقرار على الاستمرار

يتوق الانسان الى المزيد ، الى حقّ أشمل ، وهناء أكمل ، وجمال أجمل .

ولكنّه ، مهما تاق وسعى وتقدّم ، لن يبلغ الكمال : لن يسلم من الجهل والريب والضلال ، ولن ينجو من الظلم والجوع والمرض والعذاب ، ولن يغيب القبحُ عن عالمه ، أو يُمسكَ الجمالَ الهارب .

ليس الكمال ، في دنيانا ، المآل ، بل الأكمل فالأكمل منه ، ويستمرّ السير الطويل الطويل ، يستمرّ الجهد والعناء .

لن نبلغَ الكمال فنستقرّ ، ولن نقنع بأكمل فنستقرّ . لن نيأس فنستقرّ على فشل ، ولن نقف فنستقرّ على محدود .

قدَرُنا الاستمرار ، لا الاستقرار ، أو الاستقرار على الاستمرار .

وهذا شأن انسانيّ بحت : لا الله الكامل يسعى لكمال ، ولا ما سوانا من مخلوقات يسعى لأكمل . وتصحّ فينا حكمة نهج البلاغة : من استوى يوماه فهو مغبون .

المجدُ لنا ، فوحدَنا يسعنا التقدّم ، ووحدَنا نتقدّم أبدًا ، ومصيرنا بالتالي مصير فريد لا يشاركنا فيه أيّ موجود .

فالنعيم الشيوعيّ وهم

حظّنا من سعينا التقدّم دون بلوغ الغاية .

ويتوهّم البلوغ ، في من يتوهّم ، فيلسوف ألماني طبع هذا العصر بطابعه ، هو كارل ماركس (١٨١٨ – ١٨٨٣) .

يرى ماركس انّ وضعًا اقتصاديًا معيّنًا يُوجِد في المجتمع طبقتين ، يخصّ احداهما بالقوة والحكم والاستغلال ، ويقضي على الأخرى بالضعف والرضوخ والخدمة . ويتطوّر الوضع الاقتصادي ، فاذا طبقة اجتماعية جديدة تحكم ، وتكيّف الدولة والقوانين لصالحها الخاص .

فهكذا تكوّن المجتمع ، في النظام الاقطاعي ، من اقطاعيين حاكمين ، ومن أجراء عبيد ، وتكوّن ، في النظام الرأسمالي ، من بورجوازيين حاكمين ، ومن عمّال مستغَلّين .

على أنّ طبقة العمّال ستزداد عددًا ، وتنتزع الحكم بالقوة ، وتحكم حكمًا استبداديًّا اشتراكيًّا .

والاشتراكية مرحلة تؤول الى الشيوعيّة ، حيث تذوب كلّ الطبقات في مجتمع واحد ، فلا يبقى حاكم ومحكوم ، ولا تستغلّ طبقةٌ طبقة ، وتعمّ البحبوحة ، ويتيسّر لكل انسان ما يحتاج اليه ، وعلى قدر ما يحتاج .

لا يستند هذا التفاؤل، في نظرنا، الى واقع، لا الى واقع الاشتراكيّة، ولا الى ما نراه في العالم من تكاثر السكّان، ونفاد موارد الطبيعة، وتطور الاسلحة، ممّا يهدّد البشرية بالفقر والمجاعة، ويهدّدها بالاقتتال من اجل لقمة العيش، فيجعل الحاجة الحّ الى سلطات رادعة، والى الاقتصاد والقناعة.

والحب الشارديني وهم آخر

وتوهّم بلوغ الغاية، كما توهّم ماركس – وان باينه في نوعها والطريق اليها – راهب يسوعي ذاع اسمه في هذا القرن، هو تيلار الشارديني (١٨٨١ – ١٩٥٥).

آمن الشارديني بالتطوّر، وبأن الانسان نهاية تطوّر وذروة. على ان الانسان، ما انتهى من تطوّره البيولوجي أو كاد، حتّى انطلق يتطوّر جماعيًا، يتكاثف عدده، وتتداني شعوبه، وتتشابك مصالحه، وتتعقّد نظمه، ويتّجه النوع كلّه الى الوحدة.

على ان هذه الوحدة لن تتمّ عن طريق القوّة، او عن تحابّ بشري، أو طلبًا لحقيقة واحدة أو نفع مشترك: انها تتحقّق عن طريق حبّ شخص واحد، حبِّ الله.

تجسّد الله في المسيح، وتلتقي البشرية على حبّ المسيح فتحقّق وحدتها، وتبلغ كمالها، ونهايتها.

لن ينتهي النوع البشريّ بالهرم والزوال – كباقي الأنواع الحيّة –، بل باتحاد المؤمنين بالمسيح اتحاد الأغصان بالكرمة، وبطفرة صوفيّة يعانق فيها الألوهة، ويبلغ الهدف.

تجسّد الله في المسيح، والمسيح قهر الموت، وأخضعَ كلَّ شيء تحت قدميه، «وحين خضع له كلُّ شيء، خضع هو للذي أخضع له كلَّ شيء، ليكون الله كلاًّ في الكلّ». (١ قور ١٥ : ٢٨).

يبدو الشارديني ، وكأنّه يستوحي ايمانه المسيحي في ما ذهب اليه . والحال ان المسيح ما علّم ما علّمه الشارديني ، ما توقّع توحّد البشرية على الايمان به ، وعلى حبّه ، بل ما قال في نهاية العالم ويوم الدين أقرب الى توقّع شيوع الكفر والبغض والشرّ[1] .

ان الشارديني المؤمن يسرف في التفاؤل اسرافَ ماركس الملحد ، وان تباينتِ النظرة .

والاشفاق من التقدم تشاؤم

ان يتفاءلْ ماركس والشارديني ، في من يتفاءلون ، ويتوقّعان للانسان تطوّرًا الى نعيمٍ دنيويّ ، أو توحّدٍ في حب المسيح ، فإنّ ثمّ من يتشاءم ويخاف ، من يرى في ما بلغه الانسان من تقدّم علمي وتقنيّ بابَ ظلم ، وخطرًا على المصير .

والواقع ان هذا التقدّم قسم البشرية الى ربعٍ متطوّر ، قويّ ، مستغِلّ ، مستعبِد ، والى ثلاثة أرباع متخلّفة ضعيفة ، مستغَلّة مستعبَدة .

والواقع ايضًا ان الدول المتطوّرة ، في صراعها على النفوذ ، على استغلال الشعوب المتخلّفة ، تركب خطر مواجهة نووية يزول فيها كلّ انسان ، بل كلّ حيّ .

على اننا ، وان خفنا ، لا نخشى تفاقم الاستغلال ، أو كارثة التفاني ، ولنا على ذلك ادلّة :

اوّلاً : ان عدد الشعوب المتطوّرة يتضاءل يومًا فيومًا ، بالنسبة الى

١. في نهاية العالم يدين المسيح الناس ، فيرسل الأخيار الى النعيم ، والأشرار الى النار (متى ١٣ : ٣٠ ؛ ٢٥ : ٣١ – ٤٦) .

الشعوب المتخلّفة ، وسيلعب العدد لعبته ، ويَضطرُ الظالمَ الى الاعتدال .

ثانيًا : ان تفوّق الشعوب المتطورة قد لا يطول : قد تتطوّر غدًا الصين والهند – وغيرهما – وينقلب السحر على الساحر !

ثالثًا : كان في وسع الأنواع البشرية السابقة أن تتفانى – تتفانى حتّى بالحجارة والعصيّ ! –، ولم تفعل ، فلمَ نفعله نحن ؟ وكان في وسع نوعنا ، مدى تاريخه الطويل ، ان يتفانى ، ولم يفعل ، فلمَ نفعله اليوم ، وقد صرنا أوعى لانسانيتنا ، ووحدةِ نوعنا ، وترابط مصيرنا ؟ الانسان عدوانيّ ، «والظلم من شيم النفوس» ، ولكن الانسان اجتماعي تعاوني ايضًا ، غير مغامر بمصيره الجماعي ، وخطرُ التفاني العام يبدو لنا ضئيلاً جدًّا ، بل غير وارد .

رابعًا : ان الخوف الراهن من التقدّم العلمي ناجم عن خلل : لقد قدّمنا معرفة المادّة والطبيعة على معرفة الانسان ، بل سعينا لهذه المعرفة دون الحذر من عواقبها على الانسان ، فانقلبت الموازين ، وخفنا على المصير : اصبح الانسان اداةً لمعرفة المادّة والطبيعة ، لا معرفتها وسيلة لمعرفة الانسان وهنائه ، بل اصبحت هذه المعرفة باب استعباد وتفانٍ .

وما خوفنا الراهن من التقدّم العلمي سوى وعي لهذا الخلل ، ودعوة الى اصلاحه ، وبشيرِ اصلاح وحرية واطمئنان ، وعودة الانسان الى الانسان !

بلى ! بلى؟ عُدْ الى نفسك ، أيّها الانسان :
الغوص على كنوز النفس أجدى من غزو الفضاء ،
الحدس والتأمّل ونجوى الله أوغل من المُجهِر والمِرقَب ،
الحكمة المكتنزة تبحّرًا وعرفانًا أثرى من طاقات الذرّة ،

المسرح والاساطير والحكايا أنفذ الى الأغوار ،
الغناء والرقص وأنين الناي أعمق صدى في الصدور ،
الرسم والنحت أوسع بابًا الى الجمال ،
ساعة في هياكل بعلبك أمتع من ليالي ولائمَ بلهاء ،
قراءة حبيبٍ في عينين أدرى بخفايا النفس من التحاليل ،
وشوشةُ امٍّ طفلَها أحبس لدموعه ،
بسمة صادقة أشفى للمريض ،
دمعةٌ عفويّة آسى لنفس الحزين ،
شحوب الشمس في العشايا أرأف الهدايا ،
عرفُ الياسمين أشهى من عطور الحوانيت ،
سقي الزهور أدعى الى الحنين والحنان ،
الصمت والهدوء اهدى الى الاطمئنان ! ...
خامسًا : مسيرة التطوّر الانسانيّ ، حتّى يومِنا ، مسيرة تقدّم ، فمواصلة المسيرة أولى من توقّفها ، وتراجعها .

والتفاؤل والرجاء أحرى بنا

فالتفاؤل والرجاء أولى بنا ، ولن ننساق مع المتشائمين اليائسين !

أجل سنظل محدودين مقصّرين ، معذَّبين ، سنظل نعاني الجهل والضلال ، الظلم والاستبداد والحروب ، العوز والمرض والهرم ، الوحدة والوحشة والخيانات ، تفاوت الحظوظ وتفاوت الطاقات ...

ولكن سنظل نتقدّم بخطى ثابتة هي كلّ يوم أوسع : نتقدّم في معرفة الطبيعة ، فنتحكّم بها ، ونستغلّ طاقاتها ، ونتّقي أذاها ، ونتقدّم في معرفة الذات ، وفي وعينا لقدْرِ الانسان ، فيخطو العدل والحب خطى ثابتة ، وان بطيئة ، ونتقدّم في تأمين حاجاتنا ، وتنويع لذاتنا وملاهينا ، وفي غرس الجمال على دروبنا ، وايوائه في منازلنا .

الشقيّ العظيم

إنساننا هو الطموح الذي لا يرتوي ، والمحدود الذي لا يبلغ كلّ ما يشاء. وفي شقاء المحدود ، واجتياز الحدود ، يُنفَق الجهد ، وتُنفَق الأعمار.

شقيّ انت ، ايّها الانسان ، ما دمت لن تبلغ الغايات ، لن تبلغ سوى الأكمل ، وتقصّر عن بلوغ الكمال.

وعظيم انت ، ايّها الانسان ، لأنّك لا تيأس ، ولا تقنع بمحدود ، فتسعى أبدًا لتجوز ما بلغت من حدود ، لتصبح كلَّ يوم أقدر ، تقوى وتتحرّر.

الشمبنزى

أقرب حيوان إلى الانسان

رابعًا – ما نهاية المطاف؟

أطلّت في المادّة الحياة ، وتطوّر الحيّ حتى اصبح انسانًا عاقلاً ، ويتقدّم الانسان العاقل ، يتقدّم ولا يقف ، لا يتعب ولا يقنع ولا ييأس .

حدود التقدم

وسنستمرّ في التقدّم ، سنخطو أبدًا نحو الأكمل ، وهذا بابٌ زهوٍ لنا : لو وقف التطوّر دوننا ، لو وقف لدى الشمبنزى ، مثلاً ، لوقف التقدّم ، واستقرّ المستوى ، ومات الحلم والطموح والأكمل .

سنتقدّم ، فنعرف من هذا الكون ، ومن أنفسنا ، أضعاف ما نعرف اليوم ، ونستغلّ معرفتنا لما فيه بقاؤنا ورخاؤنا وهناؤنا .

على أنّ هذا التقدّم لن يبلغ كمالنا المُشتهى ، كمالنا النسبيّ الذي يحقّق كلّ رغباتنا الطبيعيّة المحدودة :

لن نبقى أحياء ما شئنا ، وسيدركنا الموت الزؤام ،

ولن يتيسّر لنا كل ما نبتغي ، لن ننجو من الظلم والعوز والمرض والهرم ، ولن ننعم ما شئنا بالحبّ السريع العطب ، وبالجمال المبتلى بلامبالاة العادة ، وجور العمر .

أنهاية العمر النهاية؟

نتقدّم أبدًا نحو كمالنا، ونموت دونه، نموت على أكمل محدود، وان متزايدًا مع تعاقب الأجيال.

والموت مآل كلِ انسان، فهل ينتهي به كلُّ شيء، ويُسدل الستار على جماد، على كونٍ لا عقل فيهِ ولا عاقل؟

ان نجبْ بالايجاب نطوِ سجلّ التطوّر على فشل، ونطوِ سجلّ الله على فشل أفدح:

– ان نتهِ الى فناء يكن ما انجزه التطوّر فينا من عقل عبثًا، وما انجزناه نحن من تقدّم علمي باطلاً، نكنْ مشروعًا فاشلاً أحمق، ويكنْ كلُّ جهدٍ أُنفق في سبيل التقدّم لهوَ عابث.

– وان نتهِ الى فناء تكنْ شهوتُنا كمالَنا – وهي شهوة طبيعيّة، شهوةُ كلِ انسان، في كل زمان ومكان – شهوةً باطلة وضعها فينا الخالق، وما من كمال، وضعها لننفق الأعمار ساعين الى وهم!

– وان يكنِ الله قد خلق الكون، وخلق فيه الانسان العاقل، لكي يعرف الانسانُ الكون، فيعرف خالقه القدير الجواد، يعرفه فيحبّه، فهل أراد الله ذلك الى زمن محدود؟

نسأل كل ما سألنا باسم العلم والعقل[1]، نسأل ليرى القارئ ما ينطوي عليه انكار خلودنا الأخرويّ من تشاؤم لامعقول:

من مآلِ انجازات التطوّر البيولوجي الى اخفاق،

ومن بطلان ما انجزناه من تقدّم علمي، وننجز،

ومن بطلان شهوتِنا كمالَنا، كمالَنا الملائم الباقي،

ومن عودة الله مجهولاً مهجورًا، نائحًا مدى الأبد على غياب العارف الحبيب!...

١. ان المؤمن بدين سماويّ يؤمن ان الموت ممرّ، لا نهاية.

خاتمة

عنوان هذه الدراسة : ما امسي ، وما غدي ؟

امسنا مادّة عمياء ضاقت بعماها – أو ضاق به خالقها – فتململت ، وتفاعلت ، وتماسكت ، وتطوّرت ، فكان ما كان من أحياء ، وكان انساننا العاقل المتكلّم ، وكان تقدّم هذا الانسان في معارج العلم .

وغدنا القريب عقل يواصل الكدّ ، وجهد لا يستريح ، وتقدّم لا يتوقّف ، تقدّم من أكمل الى أكمل .

أما غدنا السحيق ، غدُ ما بعدَ هذه الحياة[1] ، فأحد حالين : الفناء او البقاء .

الخيار المنطقي

– فان تقلْ بالفناء ،

تقلْ ببطلانِ التطوّر البيولوجي ، الذي انطلق من المادة ، وبلغ الانسان ،

وتقلْ ببطلان التقدّم العلمي ، الذي حقّقه الانسان ويحقّق ،

١. يتوقّع علماء ان يمتد وجودنا على الأرض مليون سنة على الأقل .

وتقلْ ببطلانِ سعينا لكمالنا ،
وتقلْ بفشل الله في ما دبّر ، تُنكرْ حكمته ، فوجوده !
– وان تقلْ بالبقاء ،
تقلْ بتواصل الماضي والآتي ، ما كان وما سوف يكون ،
وتقلْ ببلوغ كمالٍ اشتهيناه ، ولقاءٍ لامتناهٍ سوّانا ، وقاد اليه خطانا ، وفي جواره سوف يلقانا .

فقلْ بالبقاء معي ، ومع منطق الخلق ، ومنطق التطوّرين البيولوجي والعلمي ، ومنطق توقنا الى كمالنا ، ولا تنتظر على ذلك دليلاً رياضيًا مستحيلاً لتقول به .

بلى ! أمسُنا مطلعُ القصيدة ، وغدُنا أبياتها التسعون ، ومآلنا حداءٌ بها وترحال الى وجه ربّك ذي الجلال ، وصولٌ اليه فوصال .

ملحق

هل في الكواكب إنسان؟

رأينا كيف تطوّر انسان ارضنا ، فهل تفرّدت وحدها به أم للأرض في الكون مثيلات ، ولانساننا امثال؟

ما زال علم الفلك يقتحم مجاهل هذا الكون ، يتبيّن أجرامًا واحجامًا وأبعادًا ، ويحدّد اعمارًا وأعدادًا ، ويكتشف قوانين. ما زال المجهول كثيرًا ، ولكنّ المعلوم غيّر نظرتنا الى كوننا ، واليك أهمّ ما نعرف ، والجواب عن السؤال المثير : هل في الكواكب انسان؟

١. **عدد النجوم** : في الكون أكثر من نصف مليار مجرّة (Galaxie) كمجرّتنا ، أو نهر المجرّة (voie lactée) وفي كل مجرّة من ١٠ – ١٠٠ مليار نجمة[١] ، فكم في كوننا من نجوم!

٢. **عدد الشموس والنظم الشمسية** : شمسنا نجمة عاديّة من نجوم مجرّتنا ، ونجومِ المجرّات. ومثلُها، في مجرّتنا وحدها، نحو ٤ مليارات . فكم في الكون من الشموس ، ومن النظم الشمسية ، وكم في الكون من أرضين (Planètes)!

١. في مجرّتنا وحدها ١٠٠ مليار نجمة.

٣. **اجسام الكون وقوانينه** : أجسام الكون واحدة ، وأجسام الأرضين في المجرات اجسام أرضنا ، والقوانين التي تخضع لها الأجسام في أرضنا ، ويخضع التطوّر والحياة ، هي قوانين الأرضين الكونيّة الأُخرى

٤. **عمر الكون** : عمر شمسنا وأرضنا ، بل عمر نظامنا الشمسيّ كلّه ، نحو ٥ مليارات سنة . والمعلوم من عمر الكون ١٨ مليار سنة[٢] . فالكون أقدم من شمسنا وأرضنا[٣] .

بعد هذه المقدّمات نسأل :

١. أيُعقل ان يظهر على أرضنا حياة وانسان ، ولا يظهر مثلُها في مليارات الأرضين الكونيّة ؟ بل هل يُعقل ألاّ يكون ظهر انسان أقدم منا – أقدم وأرقى – في أرضين أقدم من أرضنا ، وألاّ يكون انسانٌ معاصرٌ لنا في أرضين معاصرة لأرضنا[٤] ، والاّ تكون ارضون احدث من أرضنا تتمخض بانسان ؟

اجل لم نستطع حتى اليوم ان نتصل بانسان الكواكب ، ولا هو استطاع[٥] ، ولكنّ المنطق ، وتماثل الأوضاع ، ووحدة الأجسام

٢. ويقدّر المجهول منه بملياري سنة ، فيكون عمره ٢٠ مليار سنة .

٣. عمر مجرّتنا حوالى ١٠ مليارات سنة .

٤. قام الفلكي الأميركي Frank Drake ، سنة ١٩٧١ ، بحساب احتماليّ (Calcul de probabilités) ، مستندًا الى معطيات علميّة متعدّدة ، فوجد ، في مجرتنا وحدها ، ما يناهز مليون حضارة متطوّرة تطوّر حضارتنا .

٥. منذ ١٩٦٠ تجرى ، في الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ، محاولات للاتصال ببشر الكواكب . هذه المحاولات مستمرة ، وتنفق الولايات المتحدة سنويًا مليوني دولار من اجل هذا الاتصال .

والقوانين ، تقضي ان يحفل الكون بالحياة[٦] ، وبالبشر ، والاّ نكون في هذا الكون وحيدين غرباء !

٢. وان نُنكر وجود بشر في الكواكب ، رغم كلِّ الدلائل ، نجعلْ من ضخامة هذا الكون بذخًا باطلاً واسرافًا : جزء يسير من هذا الكون يكفينا ، ويُدهشنا ، وقد كان ، مدى عمره السحيق ، وما كنّا ، وسيبقى بعد ان نزول ، فلمَ يخلقه الله بكلّ هذه الضخامة ، وبكلّ هذا القدم ، ولا يكون في أنحائه انسان عاقل يعرف الخالق ؟ انّ انكار بشر في الكون انكار لحكمة الصانع ، وغرور أبله بمكانتنا في الكون .

في مليارات النظم الشمسيّة أرضون وبشر ، وسيحين الموعد ، ويتمّ اللقاء ، ونتخاطب ، عبرَ المجرّات والنجوم ، تخاطبَنا على أرضنا عبرَ القارّات ! وما هَمَّ إن تمرَّ أحقاب بين خطاب وجواب ؟

ولا تقلْ ، اذا ما عجزوا عن مخاطبتنا وعجزنا ، انهم غير موجودين !

٦. منذ ١٩٦٩ تجرى فحوص نيازك (Météorites) هابطة من كواكب نظامنا الشمسي ، وقد وُجد فيها حوامض عضوية (Acides aminés) أي حوامض لا توجد الاّ في الكائنات الحيّة .

أهمّ المراجع * :

H. Alimen, *Les origines de l'homme,* 1962.
E. Boné, *Devenir de l'homme,* 1962.
M. Goustard, *Les singes anthropoïdes,* 1970.
Cl. Bobin, *Éléments de paléontologie,* 1971.
M. Prenant, *Clefs pour la biologie,* 1971.
P. P. Grassé, *Toi, ce petit dieu,* 1971.
—, *Évolution du vivant,* 1973.
J. Piveteau, *Origine et destinée de l'homme,* 1973.
Musée de Paris, *Origines de l'homme,* 1980.
R. E. Leakey, *La naissance de l'homme,* 1981.
Pierre Kohler, *La Terre et les astres,* 1979.
Secrétariat international des questions scientifiques: *Science et Antiscience,* 1981.

* صور الكتاب مقتبسة من :

R. E. Leakey, *La naissance de l'homme,* 1981.

ظهر للمؤلف

١. أصول الفلسفة العربيّة. (طبعة سادسة).
٢. فلاسفة العرب: سلسلة دراسات ومختارات في ١٠ أجزاء.
٣. الفلسفة العربية في كبرى قضاياها.
٤. طاغور: مسرح وشعر (دراسة ومختارات).
٥. حوارات: ايّها المجنون؟ – سقراط – دليلة وشمشون.
٦. معجم الحروف والظروف (نفد).

يظهر له قريبًا

١. أفياء.
٢. انا وانت والحقّ.
٣. الزمان نحّات.
٤. الانجيل وأعمال الرسل (تعريب جديد).
٥. من نسيج الأيام.

أنجزت «المطبعة الكاثوليكية ش.م.ل.»
في عاريا – لبنان
طباعة «ما أمسي، وما غدي؟»
في العاشر من شهر تشرين الأوّل سنة ١٩٨٤

٤٦٩٦